

الرسائل السياسية

في بلاد الشام أضواء جديدة على الصراع السياسي

في شمال سورية/الشام

في عصر ماري من خلال نصوص أصلية^(١)!

الدكتور فيصل عبد الله

قسم التاريخ

جامعة دمشق

سيكتشف القارئ من خلال (بعض النصوص السياسية الأصلية^(٢)) التي نشر بعضها للمرة الأولى بالعربية مدى عمق الصلة بيننا عرباً وحضارة عربية، متعددة العقائد والأديان، وبين سكان ماري وسكان الشام في عصر ماري، هذه الصلة لا تتمثل في اللغة ذات الأصول العائلية الواحدة بل في نمط العيش والاجتماع، والأخلاق، والحلم، وفلسفة الدين والعقيدة، ونظام الحكم المطلق، والتبعية العائلية والقبلية، وسيادة القانون المطلق الذي يوظف من قبل الملوك والحكام لإقامة الدولة القوية، والإمبراطورية المتعددة الولاءات والثقافات.

ولابد قبل تقديم بعض هذه النصوص من استعراض تاريخي وحضاري موجز لنتائج الدراسات حول مخطوطات ماري وآثارها:

فمنذ اكتشاف مدينة ماري عام ١٩٣٣، فإن النصوص المسمارية الأكادية لم تتوقف عن الظهور في كل موسم للحفريات، وإذا كان اكتشاف الآثار من بناء وتماثيل ومنحوتات ورسوم مختلفة، يطغى شهرته على النصوص على المستوى الإعلامي فإن النصوص الكتابية هذه هي التي تمثل تاريخ سورية وبلاد الشام عامة في هذه المرحلة أي زمن كتابة النصوص في عصر ماري قبل أربعة آلاف سنة من الآن.

إلا أن العمل على ترجمة النصوص من قبل العلماء الفرنسيين آنذاك ونشر أبحاث في مجلة Syria قد سمح للمهتمين بالتاريخ القديم للشرق العربي، أن يبدلوا الكثير من المفاهيم والنظريات المتعلقة بتاريخ المنطقة في العصور القديمة. إلا أن طبيعة العمل العلمي وتصنيف النصوص وترجمتها لم يكن ليتبع منهجية علمية حديثة كما يصنف الأستاذ جان ماري ديوران J. Durand في نقده العمل العلمي في نصوص ماري. ويكفي أن نشير إلى تعليقه على تسمية مجمل المحفوظات الكتابية بالغنيمة (butin) من قبل المختصين الأوائل وهما أندريه بارور A. Parrot وجورج دوسان G. Dossin مما يعني الاهتمام بشهرة الاكتشاف والفرح المرتبط به أكثر مما يعني العمل العلمي والأثري^(٣). وبمعنى آخر أن النصوص ترجمت وصنفت وفق أماكن وجودها في قاعات قصر ماري ولم ينشر أي تصنيف عام إلا في وقت متأخر، أضف إلى ذلك غياب أي طرف علمي سوري يستطيع المشاركة بترجمة النصوص للعربية وتصنيفها بصورة مزدوجة مع الترجمة الفرنسية.

لن ندخل هنا في هذا المجال الضيق بما يمس مشكلات النشر العلمي لنصوص ماري ونحيل القارئ للمزيد عن ذلك إلى المرجع J.M. Durand المذكور أعلاه، أو إلى كتابنا "تاريخ بلاد الشام القديم" جامعة دمشق، ٢٠٠٤، وكذلك "مدخل إلى علم الأكاديات" دمشق ١٩٨٦ (دار الأبجدية).

إن لغة النصوص آنذاك هي لغة أكادية غربية (شامية) والكتابة هي النظام الكتابي المسماري الذي ابتدعه السومريون في العراق في مطلع الألف الثالث قبل الميلاد. أما

أن تكون لغة نصوص ماري أكادية أو أمورية/عمورية، فهي ولاشك أكادية بلهجة غربية. ولكن هذا لا يعني مطابقتها للغة العمورية المحلية آنذاك. بدليل أن كان هناك حاجة لوجود مترجم بين الأكادية / والعمورية / الأمورية (ن: JMD, ibid, (mappallum xxvii 116: 34).

الأدلة والعوامل الحضارية والتاريخية:

١ - المعطيات والدلائل التاريخية:

يظهر اسم مدينة ماري في أقدم وثائق العراق القديم على أنها مدينة عريقة وتظهر في الملاحم الأدبية. ويبقى اسمها يتردد فيها حتى الألف الأول قبل الميلاد رغم تدميرها من قبل حمورابي في الثلث الأخير من القرن الثامن عشر ق.م. إن معنى اسم ماري غير مؤكد على المستوى اللغوي. فقد حاول جورج دوسان ربطه بالسومرية القديمة (ما - ري mā-ri) أي (مكان وصول المراكب على الفرات).

وهي لم تكن ميناء للتحميل كما يقول جان ماري (ibid. p. 41). كما أن الجذر اللغوي الأكادي marûm/ماروم قد يخدم فعلاً يدل على أرض أو خصوبة.

كما أن ظهوره بصيغة ماريم marim لا يتلوه استخدام صيغة فعلية منه تدل على اسم جغرافي. كما هناك إمكانية ربط ماري باسم إله الرعد مير Mēr وهذا خطأ آخر لأن الصيغة الأقدم لهذا الإله هي: وير/Wēr^(٤).

ولهذا يعتقد جان ماري (نفسه) أن اسم ماري يعود لغوياً إلى بداية الألف الثالث قبل الميلاد. ولعله يدل على اسم أقدم أطلق من قبل سكان الألف الرابع الذين لا يتوافر لدينا نصوص تكشف عن هويتهم.

من جهة أخرى نعلم أن لوائح ملوك سومر تذكر أن ماري كانت تحكم من قبل سلالة زمن ملحمة الطوفان السومري^(٥).

أما ماري واسمها في عصر إبلا فقد ورد بعض أسماء ملوكها مثل أبول إيل Ibul-El والأشهر منه انادجن Enna-Dagan حيث نفهم وجود علاقات وثيقة بين ماري وإبلا في الألف الثالث. (ن: 4. A. Archi, MARI) وقد عزى نهاية ماري في هذا الدور إلى شروكين/صارغون الأكادي في القرن الرابع والعشرين ق.م. ثم تعود ماري للظهور في عصر النهضة السومري أي زمن سلالة اور الثالثة تحت حكم سلالة تدعى شكنكوم حيث ذكرت مع بقية المدن السورية - الشامية في نصوص دريهم السومرية. وعرفت ماري دور تدهور في القرنين العشرين ومعظم القرن التاسع عشر ق.م. ثم تبدأ بالظهور عند وصول البدو الأموريين بني سمال وهم من منطقة البلخ وكان أول اسم زعيم سمالي هو يجدليم Yaggid-Lim حيث سيطر على صبروم Suprum (تل أبو حسن) وترقا Traqa ثم ماري. واصطدم مع إيلاكابو Ilakabkabu والد سمسي ادو الآشوري الشهير.

وتبدو ماري مملكة قوية في عهد ابنه يخذن ليم الذي خاض حروباً ضد بني يمين وغيرهم من القبائل والبدو. ويعلم نفسه ملكاً معمرأ لماري وقنوات الري حتى دير الزور. وترك لنا كتاباته التأسيسية المعروفة باسمه. وتدل على أعماله الحربية في الشمال والغرب الشامي حيث وصل إلى الأمانوس. ويدخل في صراع مع خصمه الآشوري سمسي ادو ملك اكلا تم كما لم يفلح ابنه سومويامان Sûmû-Yaman بمقاومة سمسي ادو، الذي تمكن من السيطرة على ماري وطرد سلالة يجدليم^(٦)، وستبقى إنجازات يخذن ليم في كتابات آخر ملك من السلالة أي زمري ليم وعهده المزدهر. وتعيش ماري فترة السيطرة الآشورية في زمن سمسي ادو الذي قام بتوحيد شمال سورية وأعلى الفرات واتبع في ذكره تأريخ السنوات نظام تسمية السنة باسم شخص ملكي أو قائد وهو نظام شمالي آشوري بعكس الجنوب العراقي الذي يعتمد سنوات حكم الملوك وأعمالهم^(٧)، ونعلم من خلاله تاريخ ماري في عهد يسمخ ادو Yasmah-Addu ابن سمسي ادو الذي نصبه ملكاً عليها وكذلك الرسائل المتبادلة بين الاثنين

الأخيرين. وهي تمثل محور فهمنا للأحداث السياسية والعسكرية في السنوات القليلة من حكم يسمخ ادو، وقبل عودة آخر ملوك سلالة يجلدليم أي حفيده زمري ليم. الذي عاش أكثر من نصف قرن ولكنه لم يحكم بالفعل سوى أربعة عشر عاماً^(٨)، وتؤرخ معظم رسائل ماري في هذا الزمن.

٢ - نهاية ماري:

تعني نهاية ماري انقطاع تاريخ أهم فترة من تاريخ الشام الموثق. وقد فاجأنا حمورابي الحليف الأولي لزمري ليم بأنه هو الذي سيقوض أركان المملكة ويحرق المدينة ويجعلها في طي النسيان. ولا نعلم شيئاً عن مصير زمري ليم، ولا عن سلالته ولا قبيلته من بني سمأل أي لا شيء بعد هذا التاريخ، ويظن جان ماري ديوران أن سلالته استطاعت أن تعيش في شمال دير الزور في ترقا مقرر الإله اثورمير Itur-Mêr وتعرف بمنطقة بدو حانا/خانا، كما أن نصوص الألف الأول الآشورية قد ذكرتها ولكن في مكان آخر وسياق آخر ربما يكون في تل بدير على الخابور. ونجد تعبير "ملك ماري" في الألف الأول وقد تنبأه ملوك سلالة صغيرة في الشمال تدعى سخوم Suhûm. وكانت تلك المناطق تخضع لسيطرة زمري ليم في عصر الازدهار، وهو ما حفظه السكان ولم ينس.

٣ - الوضع السياسي والعسكري لبلاد ماري:

كانت معلوماتنا حتى ما قبل عصر ماري تأتي من سومروأكاد وبابل وآشور وحسب، وقد صنف المؤرخون هذه الأنوار وسموها بالعصور السومرية والأكادية والبابلية والآشورية وقسم بعضها إلى أنوار أخرى وفق النصوص والسيطرة السياسية إلى عصور قديمة ووسطى وحديثة. ولم ينس المؤرخون وجود ممالك ثانوية على الأطراف في سورية وغيرها، تذكر عند حدوث تقلبات سياسية وسكانية إلا أنه يجب رؤية التصنيف السابق من خلال المعطيات الجديدة بعد نشر محفوظات ماري وهي: لم تكن

سومر في بداية القرن الثامن عشر قبل الميلاد سوى ذكرى تاريخية وكان آخر لقب "ملك سومر" يحمله ريم سين في لارسا وهو من أصل أموري/عموري.^٩

وقد كانت ثقافة سومر وكتابتها تراثاً محفوظاً، ولكنه ليس ساكناً بل نجد سكان الفرات وشمال سورية يطورون استخدام الكتابة التصويرية السومرية ويوظفونها لخدمة لغتهم المحكية باستخدام كثيف للمقاطع الصوتية بدل التصويرية.

٤ - ماري قبل بابل:

لم تكن بابل مثلها مثل بقية مدن سورية الشمالية قد بدأت تصبح مركزاً سياسياً مهماً ورغم أنها تقوت بعد القضاء على مملكة ماري إلا أن إلهها الرئيس مردوخ لم يحتل مرتبة عليا بالمقارنة مع الإله ألو/حدد الحلي، الذي أصبح إلهاً كونياً خاصة بعد دراسة مستفيضة ومقنعة لجان ماري ديوران حول ملحمة الإلهة ادو البحر^(٩). وكان ملك حلب ياريم ليم يمثل القوة السياسية الأعظم في سورية والشام كلها، ولم تكن بابل سوى جزء من بلاد أكاد القديمة في ذاكرة التاريخ. وكانت اشبونا هي التي تمثل القوة الأخطر أمام بابل وماري. أما آشور فلم تكن قد أخذت أبعادها السياسية التاريخية التي عرفناها فيما بعد. وكانت آشور عاصمة إلا أن الآشوريين لم يكونوا سوى بدو أموريين من أصول سورية شامية^(١٠). وكانوا بدؤوا تاريخهم تجاراً في شمال سورية وفي أعماق الأناضول ولم يظهر بعد المفهوم الامبريالي الآشوري، وكانت عاصمة شمسي ادو هي اكالاتوم الواقعة في عالي الجزيرة الفراتية.

٥ - الأموريون في الشام وفلسطين:

لقد وثقت لنا ماري المناطق الشامية الغربية للمرة الأولى في التاريخ ولا يعادلها في ذلك سوى النصوص الأقدم في إبلا أو الأحدث في أوجاريت أو تل العمارنة.

وهي بالمقابل تخبرنا عن الساحل الشامي من أوجاريت إلى جبيل/بيبلوس اللبنانية وحاصور الفلطينية وتخبرنا عن كريت، (كبتاروم) وقبرص (الاشيا) قبل غيرها من المدن والقرى.

٦ - التقاليد السومري الأكادي وماري:

أثبتت مكتشفات آثار إبلا ومخطوطاتها أنها لم تكن بحاجة للنمط الأكادي أو السومري لتأسيس دولة مركزية. ذلك أنها تأسست قبل ظهور امبراطورية أكاد ولعل شروكين/صارغون الذي عرفها قد استوحى منها، ولهذا يبدو لنا المسرح السياسي في بداية الألف الثاني - من خلال نصوص ماري كما يلي:

١ - يظهر الأموريون/العموريون طبقة سكانية أساسية ستعطي فروعاً أخرى هي بابل وآشور وماري وحلب وقطنا، وأوجاريت وجبيل/بيبلوس وحاصور.

ويبدو العالم الجديد العموري ورث سومر وأكاد وهو كذلك العالم المقابل لعالم الحضارة المصرية التي لم تكن بعد قد مدت نفوذها إلى فلسطين والشام عامة.

كان الساحل الشامي (السوري اللباني الفلطيني) مسكناً ومحجاً للملوك العموريين وسكان بني يمين القادمين من الفرات. وسيكون المسرح الساحلي مكتظاً بالسكان العموريين الذين سيبدؤون رحلاتهم البحرية بحثاً عن أراضٍ جديدة، وسيعرفهم الإغريق تحت اسم فينكوس/هذا التعبير الإغريقي للتجار العموريين سيصبح مقابلاً لحضارة سماها الغرب بالفينيقية. وللأسف أن بعض المؤرخين العرب ومتقفيهم التقطوا التسمية ليبينوا عليها تاريخاً مستقلاً لجزء من الساحل الشامي اللباني بما يخدم التطلعات السياسية لفئة معينة. وكذلك ظهر تاريخ العموريين - (الفينيقين) في تونس/قرطاجة وغيرها من سواحل البحر الأبيض المتوسط وظهر كأنه مفصول عن أصله العموري/الشامي. إلا أن جميع سكان الساحل الشامي كانوا في حركة وتنقل في جميع أرجاء المتوسط، ولئن كانت مدن صور وصيدا من المراكز العمورية «الفينيقية» المهمة، إلا أنهما لم تكونا معزولتين

أو «مستقلتين» عن بقية الساحل ومنه مثل ارواد وأوجاريت شمالاً، وعكا وغزة جنوباً، على سبيل المثال، كما أن دمشق عرفت عصرها العموري تحت اسم بلاد أبوم Apum وكذلك خصوم وسارون Saron في لبنان، حتى أن بقاع لبنان يدعي (مات كنخوم) أي بلاد كنعان وهم عموريون ذكروا في كتابات ادريمي ملك الآلاخ في شمال سورية، الذي لجأ إلى فرع منهم (أقرباؤه غالباً) قرب ايمار على الفرات. ولكي نفهم المزيد عن التوزيع السياسي والجغرافي لهذه المرحلة العمورية لابد من مراجعة دقيقة لدراسة زميلنا أ. د. جان ماري ديوران الذي يفتد فيها كيف وثقت نصوص ماري لغرب المشرق العربي أي الشام^(١١). وقد تمثلت قوة الممالك الشامية هذه وخاصة حلب بقدرتها على التدخل السياسي في المشرق أي في العراق البابلي وذلك قبل صعود الامبراطورية البابلية العريقة. ونعلم أن حمورابي لم يتمكن من تجاوز الحدود الغربية بعد ماري بسبب امتداد النفوذ الجغرافي الحلبى وقوته الذي وصل إلى تل ليلان (قرب القامشلي).

٨ - الجغرافية السياسية لماري:

تشكل أعالي الجزيرة والفرات وفي عمق الأناضول ميداناً سياسياً وجغرافياً وسكانياً متنوعاً ومعقداً. واشتهر من مناطقها حران (زلمكوم Zalmakum وادمرص Ida-Mars وبلاد أبوم) (اسم بلاد أخرى مطابق لاسم أبوم الاسم القديم لحوض دمشق) وبلاد سبرتم Subartum. وسنرى في النصوص والرسائل السياسية أن هذه البلاد تحتل مكانة مهمة في تاريخ شمال سورية/الشام، حيث نعرف ملوك هذه المنطقة من خلال نصوص ماري بأنواعها السياسية والإدارية. فقد كانت كركميش وخشوم Haššum واروسوم Ursum تجمع بين الأرياف الشامية والأناضولية. وكانت حران تمتد بسهولها إلى أعماق الأناضول وتشكل تحالفاً سياسياً يضم مدناً مثل نهرىا Nihriya وشدا suda وخزات Hanzat وشكلت مملكة زلمكوم المعروفة، وهو معقل لسكن مكثف للبدو من بني يمين، وسفوح طور عابدين (Maras) حتى جغجج وكانت تحمل اسم ادمرص Ida-maras أي (جانب مرض).

وتتجمع مجموعة قرى ومدن في هذه المنطقة الخصبة هي إلان صورا وأشنكوم واوركيش وشوشا وأشلاك وترماني وشدخم وزلخان وخزكانوم وقاسقا qâ-Isqâ وكخات ونعلم أن أوركش هي تل موازن اليوم، ويقع شمال البلخ المدينة الشهيرة دير Dêr، وكانت هذه المنطقة ومدنها مسرحاً وسكناً للبدو من بني سمال. كما أن المواقع الشهيرة مثل تل حلف وتل فخرية وتل طويلة وتل طويل وتل بيدر قد سكنت في الألف الثالث وهجرت في العصر الأموري (الألف الثاني) ذلك أن موقعاً مثل سكاني Sikkani على الخابور قد ذكر في نهاية الألف الثالث زمن اور ٣ وعُرف في العصر الآرامي ولكنه غائب من نصوص ماري. كما أن المواقع التي ذكرت في محفوظات إبلا في الألف الثالث لم تذكر في محفوظات ماري في الألف الثاني. وكان جججغ يدعى خرماش Hirmaš، حتى في المصادر العربية، بقي الاسم على حاله ويتبع موقع كخات المعروف في ماري الذي يمكن أن يُوقع في تل حميدية وليس في تل بري (flor. Mar. II. 244) ونجد قرب تل براك ناجار Nagar الأمورية وكانت مركزاً سياسياً زمن الفتوح الأكادية. وكان تل ليلان (القامشلي) يشكل منطقة نمو القصب أي (مات ابوم) وتقع بين عابدين وسنجان. ودعيت قديماً شخنا وصارت شباط انليل عاصمة شمشي ادو الآشوري الأولى. وكان أقرب موقع لها يدعى ازمخل Azamhul أي (تل محمد دياب) (J.M. D I p151) أما السوبارتو Subartu فقد تموضعوا في الرميلان القريبة من الدجلة (وفيها موقع رزما Razamâ ويشان Yušan ويقع إلى الشمال من مملكة اكلاتم (رزما قطارة كرنا) وسنجان وعاصمته أندريج وملكها الشهير يموت بعل وكردا عاصمة بلاد نمخا Numhâ وهكذا فإن جبل سنجان الذي مازال يحمل اسمه التاريخي السلفي للعرب، كان مكتظاً بالمواقع والسكن من قبل بني سمال.

وكانت الجبال وخاصة زاغروس الإيرانية تشكل خطراً دائماً على سكان السهول البدو والحضر، وكان معاني أسمائها تدل على ذلك مثل مرص Maras ومردو Murdû

(ممرض، صعب) وباخوم (مخيف) وشجر (šaggar) ومردو Murdū ويحتمل في الحقيقة وعقال. ولم يكن هناك من اسم ذي معنى إحدائي سوى "كه" أو "ج" أو "أ" أو "ب" زاغروس، وكانت كلمة أسقر Asqur تعني المرتفع.

وكانت مدينة كسبا Kasapa تصل بين سنجار وعابدين، وحظي جبل عباد المزوس بمكانة مهمة وسط الصحراء، وكانت زاغروس حدود التغلغل الأموري. واعتبرت جبال زاغروس مصدر خوف ورعب، وعرفت عاصمة ذلك الزمن أنشان (Anšan) (ي، ماليان) Tell-i-Malian ومركز الامبراطور العيلامي شكل مخسوم Šakka mahhum وكان يسيطر على سوز (سوزة)، ولم تظهر قوته إلا زمن زيري إم.

وكانت الصحراء أو البادية تحظى بقليل من الأمطار السنوية فتحولها إلى مسروج خضراء لزمن قليل، فهي لم تكن تختلف إلا قليلاً عما هي اليوم. أي أنها كانت أكثر رطوبة ومطراً بنسبة ضئيلة. ويمكن أن نسجل عدداً من الرحلات الموثقة بين تدمر ودير الزور، وحلبيا والرقّة. ويبدو من المؤكد أن القوافل والبدا لم تتوقف عن عبور البادية يوماً. وكانت قوات شمشي أود أكبر قوة حربية (عشرون ألف رجل) تدمر البادية إلى تدمر وحمص ودمشق ولبنان، وبذلك عرف لبنان للمرة الأولى في التاريخ من خلال نصب شمشي أود في القرن الثامن عشر ق.م (mat libano) ^(١٢)، وكان بدو السوتوم Sutûm يسرحون بين بادية سورية وبادية الحجاز العربية.

٩ - اللغة وهوية السكان:

لاشك بأن اللغة هي الدليل القاطع على الهوية الثقافية والعرقية ولكن لا يجب الخلط بين اللغة والعرق (race, ethnîe). وذلك أن مصادر معلوماتنا اللغوية قد تخدعنا أحياناً ذلك أن مهاجرين جدد، قد يتبنون لغة سكانهم الجديد، دون أن يبنوا ثقافياً وعرقياً إلى المكان هذا.

ومصدرنا في التمييز بين الأعراق هو الأسماء المذكورة في النصوص، فمعنى الاسم وجذره، يتميز بسهولة ويمكن نسبته إلى اللغة الأم لحامل الاسم.. حتى هذا الأمر ليس معادلة مستقرة ويجب الحذر والانتباه، فمثلاً يمكن ملاحظة أن أسماء العلم التي تتضمن صيغة فعلية من يا ia قد صنفت على أن الاسم أموري/عموري من غرب الشام. والأسماء الأخرى التي تتشابه مع أسماء محفوظات نوزي Nuzi فهي حورية.

إن فائدة أسماء العلم في نصوص ماري تكشف لنا عن اسم الأب والابن والجد وبالتالي تركيب سلالة وتصنيفها على المستوى السياسي والعريقي. ونلاحظ وجود اختلاط طبيعي في الأسماء من أجناس أو أعراق مختلفة، وخاصة الحوري منها.

- اللغة الأكادية واللهجات الغربية الشامية: لا نستطيع إيجاد فروق كبيرة بين أسماء العلم الأكادية الشرقية وتلك الغربية الشامية. ونجد أن زمري ليم ملك ماري يذكر أن مملكته هي مزدوجة التبعية أكادية وبدوية، ولكنه يذكر في مكان آخر أنها أمورية (JMD. I. p.53) ولكننا رغم هذا نستطيع تمييز الأسماء الغربية عن الشرقية في كثير من الصيغ الاسمية حيث يكثر في الغرب استخدام اسم ياريم وليم وهو نادر في الشرق الأكادي حيث نجد شار، نارام، وسين إلخ..

- أما بالنسبة للحوريين وأسمائهم فسأنقل حرفياً ما استنتجته أد. جان ماري ديوران من خلال نصوص ماري وغيرها، نظراً لما تحمله هذه المشكلة من مشاعر معاصرة لدى الأقليات في سورية من أكراد وتركمان وأرمن، حتى أكون محايداً في الموضوع، يقول جان ماري ديوران في مجلده الأول عن نصوص ماري (JMD, I, p 54): «إن أسماء العلم المنتشرة في النصوص ذات الصفة الحورية، تمثل حقيقة في شمال الرافدين، حقيقة لا يمكننا تحديدها بدقة فيما إذا كانت سومرية أو سامية (شامية)» (١٣).

ويتابع جان ماري ديوران JMD: «إنه لمن الصعب التقرير فيما إذا كانت تمثل أساساً أو جوهرأ حقيقياً في الشمال، أو حقيقة لأناس كانوا يسكنون في الجبال. فمن جهة

توثق لنا ماري أسماء علم كثيرة، وتعود لتاريخ أقدم من نصوص نوزي Nuzi (الحورية) أو بوغاز كوي (حاتوشا الحثية)، ومن جهة أخرى، تكشف لنا عن الأصول الحقيقية السورية (الشامية) التي كنا نحكم، بصورة نمطية، أنها ثقافة حورية، كما هي الحال بالنسبة لعدد من أسماء الآلهة القديمة مثل (خبات Hébat أو أشتبيل Aštibil وخذلو Haldû ونبادج Nubadig) أو تعابير حضارية وأداتية (أداة، مادة). فكثير مما حُكِمَ عليه بأنه «حوري خالص» في وثائق وسط الألف الثاني، يجب، بالأحرى، أن يعتبر، من الآن فصاعداً، حقيقة «سورية شمالية» (شامية - شمالية)، وكذلك الأمر، بالنسبة، للتحويل المشوه للحقائق السامية، غير الأكادية».

وبمعنى آخر إن على المؤرخ اليوم أن ينظر إلى حقيقة الأسماء واللغة في شمال سورية أي الشام على أنه أصل مختلف عن الحوري أو الحثي، وكذلك ألا يفسر على أنه أكادي خالص، وبالتالي فإنه سوري - شامي قديم صرف^(١٤).

١٠ - نظرة البداوة والتحضر والسياسة والدولة:

إذا كانت البداوة ظاهرة شامية (سامية) منذ أقدم العصور. إلا أنه ليس من المنطق أو الإثبات التاريخي أن كل التمدن الشامي جاء من خلال البداوة. ولئن كان قسم من العرب بدواً، إلا أن بعضهم من مثل أصحاب حضارة البتراء وتدمر واليمن القديم تغيب عنهم صفة البداوة القريبة.

كما أن الأكاديين وهم أبعد سلف للعرب لا نجد في وثائقهم أصلهم البدوي! ونحن هنا نتكلم عن حالة تاريخية وليس قبل تاريخية. لأن البداوة والصيد هي سمة أساسية فيما قبل التاريخ.

ولنذكر أن سكان الساحل الشامي من عموريين وآراميين لا يعكسون في وثائقهم أي صورة لأصول بدوية. كما أن نصوص ماري وهي الأقرب إلى صورة الواقع بخلاف المصادر الأخرى، فإنها لا تذكر، ولا تعكس صورة آية للتحضر أو البداوة. ونلاحظ

أن ذكر ظاهرة البداوة الأقدم في عصور سومر وأكاد لم يكن إلا إشارة إلى تقلبات سكانية وحضارية متنوعة، وتأتي ظاهرة سكن البدو والتقرب من مواقع التحضر أمراً متسقاً مع عوامل أخرى. وعلى هذا علينا العدول عن تلك النظرية التقليدية السائدة هنا وهناك حتى في أدبيات الغرب الأوروبي (ن: J-R. Kupper Les Nomades en Mésopotamie.. p. 262-263) أن هناك تغلغل وتسرب دائم من البدو إلى المراكز الحضارية على مدار التاريخ.

وكل ذلك يتشابه مع غزو "البرابرة" للإمبراطورية الرومانية... يمكن لنا أن نجمل القول إن البداوة والتحضر هما ظاهرة مدنية بحد ذاتها، لأن البداوة تخضع لشروط جغرافية وحسب، وليست ظاهرة (عرقية)، وبالتالي فالبدو جزء من الحضرة والعكس صحيح، وهما البشر الذين يتعرضون لتقلبات جغرافية سلبية أو إيجابية، فيتولد منهما التحضر أو الاضطراب للعيش في حالة تنقل بحثاً عن الكأ والملاح لدوابهم، ونلاحظ في وثائق ماري وإيلا أن أكبر أعداد الدواب والأغنام تعود للملوك والحكام في المدن وليس للبدو المتنقلين... فلا يجب أن نحتفظ بصورة مطلقة لظاهرة متبدلة.

وعلياً مراجعة أعمال الندوة الدولية عن البدو والحضر (XX VIIIe RAI de Paris, p. 98-108) الخاصة به ماري ووضعها السياسي والسكاني، حيث إن محيط ماري متوزع بصورة دائمة بين بدو وحضر ولا نشعر بطغيان أحدهما على الآخر، ما خلا بعض ظواهر العنف المسجلة من صراعات قبلية بين بني سمأل وبني يمين، وحانا وسوتو. وهي ذات طابع اجتماعي وقبلي لا بدوي وحضري.

ونعرض هنا صورة عن الواقع السكاني والسياسي في عهد زمري ليم كما يلي:

١ - تتشكل المملكة من قلب هو ماري وتوابع وأطراف وهو توتل وإيمار أحياناً، وطور عابدين شمالاً، ورزما وقطارة وكرنا شرقاً - شمالاً وحيث Hit إلى الشرق، والبادية جنوباً.

٢ - كان جيران ماري من العواصم الكبرى آنذاك مثل حلب وبلاد يمحاض وكركميش/طرابلس وقطنا/حمص وبابل إلى الشرق الجنوبي، واكلاتم، شمال شرق.

٣ - إن عالم المراكز والعواصم البعيدة عن ماري التي تتصل معها بعلاقات تجارية هي الساحل الشامي: أوجاريت وجبيل/بيبلوس وحاصور في فلسطين وكريت ومصر، والخليج العربي وما وراءه البحرين/بلمون وزاغروس والأناضول بما فيها المحيط الحوري الحثي. ولا تتوفر لدينا معلومات أكيدة حول ظاهرة البداءة والتحضر في هذه الأماكن ولا نمتلك سوى شواهد تجارية مباشرة أو غير مباشرة. وهكذا نجد أن محيط ماري الصغير والكبير هو ذات الامتداد المشرقي العربي اليوم وجواره الإيراني والأناضولي والإغريقي والقوقازي - الروسي.

والخلاصة، شاهد ماري الحضاري وقيمتها:

إن الوثائق السياسية والإدارية والاجتماعية التي قدمتها محفوظات ماري تقع في المقام الأول في تاريخنا القديم وخاصة بداية الألف الثاني قبل الميلاد. ونجد أنها تلقي الضوء على تاريخ شمال بلاد الشام للمرة الأولى وتجعله صنواً وريفاً لتاريخ سومر وأكاد وبابل وآشور. كما سمحت باكتشاف حضارة مدن وأقاليم مجاورة لم يصلنا منها بالذات أية معلومات مثل حلب وكركميش وأوجاريت وجبيل وغيرها... ويسمح لنا هذا الصعود في تاريخ الوثائق المارية، بالتأكد من وجود دول مهمة ورائدة، كنا نعتقد أنها حديثة العهد أو غير موجود، وسمحت لنا بالتأكد من خلود حضارة المشرق العربي واستقرارها الدائم إلى جانب محيطها المختلف لغوياً وعرقياً. وحددت لنا سمات وحدود الانتشار الحضاري اللغوي والتقني لأسلاف العرب والشام وخاصة، كما ترىنا قدرتها الانفتاحية وليس الانغلاقية، وذلك من خلال عبقريتها الخاصة التي لا تلغي ولا تحجب عبقرية الحضارات المجاورة وشعوبها، كما لا يمكن أن نزل حضارة ماري عن الإرث الثقافي العربي الشامل، فهي التي عاشت تطورها من خلال ألف سنة من

التجارب، التي نجد فيها بدايات التكوين لثقافتنا الدينية المتنوعة. وكلما تعمقنا في دراسة نصوصها نكتشف المزيد من غنى حضارتنا اليوم. حضارتنا اليوم، التي تحتاج إلى دفع وتحريك باتجاه المستقبل من خلال العودة إلى أقدم الجذور، وليس الجذور التقليدية المعروفة وحسب.

النصوص:

١ - السياسة والعمليات الحربية:

إن موضوع السياسة والحرب هو الأكثر وضوحاً في نصوص ماري^(١٥). وتتجلى من خلاله أسماء ممالك تقع في شمال بلاد الشام والعراق. وبالتحديد في أعمال الجزيرة والفرات وشمال سورية ويذكر منها أشنونا وقبرا Qabra وزلمقوم Zalmaqum ويمحاض.

وكان زمري ليم أشهر ملوك العصر وبفضله وصلتنا النصوص السياسية والحربية، وقد استعاد عرش أجداده بالقوة، وذهبت مملكته في نهاية المطاف تحت قرعة السلاح وحفيف النيران. وقد شكلت تلك الممالك وحدات سياسية وجغرافية مستقلة ولكن بقوة السلاح وصراع لم يتوقف أبداً.

وكانت القوى المتصارعة تتسارع للتحالفات وطلب العون من حلفاء اليوم الذين قد يكونون أعداء المستقبل والعكس صحيح.

إن الرسالة الأولى التي نبدأ فيها دراستنا تنبئنا عن هذا الواقع الأليم التي يمكن أن تكون فاتحة لفهم التركيبة السياسية والصراعية شمال الشام - سورية.

إلا أن السياسة وفكرة الحرب لا تخدمنا إلا بقدر وصولنا إلى عمق الأحداث كي نتمكن من الاستفادة منه ونقل تجربة الأجداد إلى الأحفاد، والهدف هو الاستفادة من الماضي في إعداد المستقبل وليس الحاضر وحسب.

وننقل هنا ترجمة النصوص الأصلية إلى العربية ولعل هذا يحدث للمرة الأولى بعد أن ملأت هذه النصوص صفحات التاريخ في اللغات الأوروبية. ونستعين كما هي العادة بنصوص ترجمها أستاذنا وزميلنا أ.د. جان ماري ديوران J.M.D وكذلك بمعرفتنا بالترجمات السابقة وبأصول النص الأكادي - المسماري، وهذا النص الفاتحة هو:

(قل لمولاي أن قال ابال بي إيل Ibâl-pî El خادمك: علمت أن يرخأ أبوم Yariha-Abum قد حصل على إذنكم بترك أمير اشنونا Ešnunna، ويعلم مولاي أن هذا البيت (الملك) مليء بالخيانة! وأخشى أن تكون حيلة ضد مولاي بهدف الاستيلاء على اندريج Andarig، فإن أخذها، سيتوجه إلى كرداء ومنها سيعبر جبل سنجار، وكل بلاد شبرتم Šubartum ستصبح: «عاش مولانا» فهذا البيت قد راح يفعل تماماً، كما فعل سمسي ادو Samsî-Addu^(١٦). فهو لا يتوقف عند حدود: فقد استولى على اكلاتم، وأقام معسكره ضد قطارا Qattarâ وضد ألخد Allahad والمدينة التي يستولي عليها يقوم بضمها! فهذا البيت مملوء بالخيانة!

وقبل أن تخرج الأمور عن رقابتنا، ويدهمنا الوقت، فلنمش ضده (ضد هذا البيت) فالبدو يتحرقون للقتال وكذلك ملوك ادمرص Ida-Maras قد تجمعوا مع قواتهم وهم يتطلعون بعيونهم إلى مولاي وقد اجتمع المشايخ وبعثوا إلى مولاي كل من أتى ايل Annî-itti-El وحزان Hanzân^(١٧) فليتشاور مولاي مع خادميه وليبدأ الطريق).

٢ - الحملة على قطنا/حمص:

يمثل هذا العمل السياسي والعسكري أكبر مجموعة من النصوص^(١٨) ومنها غير منشور وينشر للمرة الأولى بفضل زميلنا J.M.D الذي طرح السؤال من كان يقود الحملة آنذاك أي الحملة الآشورية نحو غرب وسط سورية أي حمص ولبنان ودمشق؟ وهل كان ملك آشور سمسي أو بنفسه أو أحد ابنيه أو أحد القادة العسكريين.

ويقرر ديوران J.M.D أن أحد ابنه المدعو يسمخ ادو ملك ماري عدو زمري ليم ومغتصب عرش أبيه، هو بنفسه قائد الحملة. وسنقع على رسائل نترجمها هنا تبين لنا الطرق التي سلكتها حروب الأمس، فهناك ما يشير إلى أن طرقاً مباشرة ومختصرة تعبر البادي الشامية/السورية شرق تدمر لتصل مباشرة إلى نهر الفرات. وكان على ملك آشور شمسي أدو أن ينتظر الهدوء على جبهته الشرقية أي طوروس وزاغروس حتى يوجه قواته إلى الغرب. وكان عليه إنهاء المعارك الشرقية مع قبرا واشنونا وإقامة التحالفات عند الضرورة وتجميع قوات كافية لمعارك الغرب.

ومن خلال الدراسات المتعلقة بالحياة الدينية في ماري، نستطيع أن نبين أيضاً، موقع رجال الدين في الحياة السياسية. فقد عرض جان ماري ديوران في دراسته الشاملة عن الكهانة والعرافة في نصوص ماري، هذا الدور الذي يتركز في النقاط الآتية:
إن على الكاهن أن يحدد الاختيارات المناسبة لمسيرة الدولة والابتعاد عن المغامرات التي تحكم عليها الآلهة بالفشل.

ويمكن تلمس مثل هذا الحال في تعبير الكاهن شمش عينايا (Šamaš, imāya = الشمس عينايا) عندما يشكو من أنه لا يستطيع القيام بعمله، وأنه مجبر على المسيرة إزاء قيامه بواجباته كي يحفظ باب رزقه ورزق عائلته عندما يقول في إحدى رسائله: "عاجلاً أو آجلاً، ولا سمح الإله فسترتكب الخطايا" (١٩).

رسالة من أوصر - أواسو Usur - awassu

كبار المسؤولين في قصر ماري زمن يسمخ ادو Yasmah addu

D. Charpin^(٢٠). 298 [A. 3120]

قل لمولاي أن قال خادمك أوصر أواسو: "كتب لي مولاي أوامر مشددة تتعلق بمرض بلتوم Bêltum قائلاً: «انتبه أن لا يكون هناك إهمال».

وقد تابعت الأوامر، بالنسبة لي، فأنا لست قلقاً على ملكتي، فقد خفت حدة مرضها فلم تعد كما سبق. من جهة أخرى، لا يوجد في القصر مرافقات ممتازات تستطعن خدمة بلتوم شخصياً. يوجد حالياً أربع أو خمس مرافقات عند مبلساجا Mubalsaga اللواتي يعرفن استخدامات القصر. ويناسبن للخدمة الشخصية لبلتوم، فليرسلهن مولاي كي يقمن بخدمة - الملكة شخصياً بحيث ينصحنها بما هو مناسب وكذلك المشرفة العامة.

إن المرضعة التي جاءت مع بلتوم من قطنا، كونها أشرفت على تربية بلتوم وتعرف أطباها، كان يجب أن تحضر عندما جاءت بلتوم من قطنا. والحال أنها أرسلت مع بلتوم إلى ماري، ولكنها لا تعرف شيئاً عن حياة القصر في ماري، وبسبب المرأة غير المسؤولة التي تقوم على الخدمة الشخصية لملكتي، وعند القبلولة وإغلاقه أبواب القصر، قامت (ملكتي) بإخراج المغنيات إلى مزار عشتار من أجل الصلوات (شوراروم Šururum) وفي باحة بيت برمي birmi ضربتها الشمس! فمضت منذ ذلك اليوم. أما الآن فلا ينشغل بال مولاي إطلاقاً.

فقد خفت حدة مرضها، بعد أربعة أيام من هذه الرسالة، سأبعث لمولاي بأخبار جيدة».

٣ - بداية الغزو العيلامي (أسلاف الإيرانيين)

في زمن زمري ليم

ومحاولات الاستطلاع

D.C 301 [M. 165]

رسالة قصيرة.. من مبعوث زمري ليم المدعو يمصوم Yamsûm

(لقل لمولاي أن قال خادمك يمصوم: وصلت إلى مدينة على الجبهة، وهي مدينة إلان صورا Ilân-Surâ، حيث الملك هيا - سومو Hâya-Sûmû وجيش مولاي بحالة جيدة. ولدي تسعة وعشرون رجلاً، وبعثت برجل آخر.
هذه هي الأخبار بسرعة أبعثها لمولاي من إلان صورا).

يتلو ذلك عدة رسائل عن أوضاع الجبهة مع العيلاميين نختار منها اثنتين:

D.C 302 [M. 7099]

أقل لمولاي أن قال خادمك يمصوم: إن جيش ومدينة مولاي بحالة جيدة. كان مولاي قد أمرني - ونحن في مدينة إلان صوراً ما يلي: «عليك أن تذهب إلى مدينة إلان صوراً وتراقب ما أمرتك به» وسهرت على تأدية دوري ولم أرتكب خطأ أو أسبب نقصاً تجاه مولاي. إن الأخبار التي أسمعها هنا وهناك وما تراه عيناى، فإن لم أتأكد من الخبر، فلا أكتبه لمولاي. وقد يحدث أن لا أتأكد من خبر ما، ولكن هذا ليس بكذب، ذلك أنني لا أكذب على مولاي. والواقع أن أحداً ذهب لملاقاة مولاي ودس عليّ بهذه العبارات: «ياسيم - إل Yasim-El قد أوكل إلى يمصوم سبعة عبيد من نومخ numhu، لقد استهان بقسم أتور - مير Itûr-Mêr وبمولاي».

أقسم، بإنني لم أر شيئاً بين يدي يسيم - إل أو في يدي الجنود، وإنني لم أدخل شيئاً إلى مدينة إلان - صوراً، وإنني لم أخف هذا الأمر على مولاي: وإلا من سينقذني من بين يدي مولاي ذات يوم. وكان أقبا - أخوم، أحد تابعي مولاي، وموضع ثقة، قد ساعطني أمام هيا - سومو، واستعرض قضية النومخين، ولكن شيئاً لم يوجه ضدي، وانجلى موقعي. واليوم، فليعلم مولاي أن هيا سومو لم يتوقف عن الكتابة إلى مولاي بالنميمة في موضوعي. فقد تحدث هذا الرجل أقبا أخوم ولكن نهض أيا سومو أمام أقبا أخوم وقال له: «لماذا أتيت وزدت في الأمر على يمصوم؟ فهل هذا القرار عادل؟ إنه لا يساوي شيء».

إن أقبا أخوم تابع مولاي وجدير بالثقة، قد حقق في الأمر، ولم يوجه ضدي أي شيء، وعاد إلى أتمروم. وعندما كان يسيم - في طريقه إلى مدينة سيخوم Siphum، فقد أرسل إلى ثوراً بقرّة مع خادمة وساقها خادم لي سالمة إلى قطونان. يجب على أتمروم أن يُسلم هذا الرجل، أو أن يسيم. قد أخذه. لا أعلم، إلا أن مولاي يجب أن يكون على علم بهذه الأخبار.

شيء آخر، سمعت من حولي [....] إن حمورابي يعد لحرب .. لا أخبر حمورابي، وليعتقد السلام معي!«... إن أقبا أخوم قد ذهب».

٤ - قتال في شمال الجزيرة:

ونتابع أمور الدسائس بين تابعي الملك في رسالة أخرى ولكنها تلقي ضوءاً آخر على صراعات وقتال يدبر في شمال الجزيرة السورية، وهناك إشارة ثانية إلى حصار على بابل وقتال ضد عيلام. ولكن مطلع الرسالة مهشم إنها الرسالة ذات الرقم:

D.C 303 [A. 1168]

يقول كاتب الرسالة: «أريد أن أذهب إلى شخنا عند كونام Kunnam كنت قد قلت أن خصميك أي أدو Addi-Addu ويشيم أدو، مازالا هناك، قلا تذهب، لأنهما سيضعفان موقفك». وجاء في اليوم التالي إيللوري Ulluri، واستعرضنا معه الرسالة التي حملته إياها مولانا. فنهض وقال: «أنقذتموني أكثر مما أنقذتم شبرام Šubram وساميتار Sammêtar» عندها نهض إيللوري وقال مواجهة له: «ألست أنت الذي أوداه إلى التهلكة بسبب تكتمك؟»، حينها نهضت وقلت: «أمام خطئك ألا تقول، هذا خطئي!» ألا تدري أنه حينما حل سلطان مولانا يعم السلام؟ فمئذ أن توفي سمسي أدو، يوجد أربعة ملوك أقوياء. ولكنهم لم يتزوجوا من نسل يخذون ليم. والحال أنك تزوجت اثنتين من بنات مولاي، ومن ثم يصدر منك السخرية تجاه مولاي! ألا تعلم أنه من دون قوات صديقة على أبواب أندريج Addrig قد طرد مولاي سيد اشنونا، وهو ملك قوي؟ فلماذا يصدر منك هذا التهكم تجاه مولانا، ألا تدري أن رمح مولانا وكذلك الحنانيون أقوى من نظيره في البلاد كلها؟» الآن، فلينتبه مولاي جيداً إلى هذا اللوح (الرسالة). حالياً، فإن إيللوري، تابعك الجدير بالثقة، الذي يلوم هياسومو وجهاً لوجه. فقد لقناه درساً أنا وإيللوري، ولذا لم يذهب إلى شخنا. ولكن بما أنه قد أرسل سوريا Suriya وأقبا أبوم Aqba-abum، مكانه، فقد حلفوا اليمين مع كونام وأدي أدو ويشيم أدو. حالياً فإن رسائل السوكال Sukkal (مندوب العيلامي) قد وصلت إلى الملوك. وهذا ما يقولونه:

«ضعوا حداً لانشقاقاتكم وتعالوا! سأقوم بحصار بابل. وهكذا فإن البلاد تتوجه إلى مولانا. والآن فإن هياسومو قلق. فلينبه مولاي أن لا يهمل الموضوع... وليتفكر مولاي... شيء آخر، اكتب له بهذه العبارات: «تعال إليّ لتفكر سوية ونجري اللازم. قل لمولانا أن يعطي رمحاً ليد رابوم».

D.C 328 [A. 2138 + M. 6368 + M. 14997]

تدل هذه الرسالة بوضوح على الأعمال الحربية لزمري ليم ملك ماري في الشمال والجهة الشرقية العيلامية وكذلك البابلية:

(قل لمولاي أن قال تابعك بمصوم. المدينة بخير، وكذلك قوات مولاي.

فقد أرسل هياسومو أتباعه إلى مدينة شخنا وحملهم هذه الرسالة:

«لمن ستفتحون أبواب مدينتكم؟ إن فتحتموها لزمري ليم فسأعوضكم بما تريدون، فأجابه ينوخ سمر «إنني محاصر داخل المدينة، والعيون مفتحة علي». كما أرسل هذه الرسالة إلى سِمة خلوريش Simat-hlluriš، فأجابه سِمة: «سأحتفظ بالمدينة إلى مولانا. ولن أفتح المدينة لأي كان. فإن وصلت نجدة مولاي، سأنفذ، وإلا سأضحي بحياتي لمعارضة دخولك. وإن امتدت يد علي، فسيكيني مولاي؟». لم يعتقد هذا الرجل أن العيلاميين قد انسحبوا من مدينة حيرة Hirītum ورحلوا إلى بلادهم، وفي النهاية، لم يصله أية قافلة. ولم يبق حبوب في المدينة، لم يبق من الحبوب ما يكفي سوى لشهرين».

٥ - زوزو الملك... مات في تل محمد دياب:

إن الرسالة القادمة تحمل الكثير من صور الحياة اليومية في سورية قبل أربعة آلاف سنة، ومكان أحداثها على ما يظن العالمان الصديقان جان ماري ديوران ودمنيك شاربان هو تل محمد دياب على بعد ثلاثين كيلو متر شرق القامشلي، ويظنان أن بقايا التل الأثرية التي تنقب من قبلهما منذ عام ١٩٨٨ (وبمشاركتي في إحدى المواسم) أن

هذا التل قد ورد اسمه القديم في الرسالة هذه باسم أزمل Azamhul وتتبع مملكة تدعى أبوم Apum.

لقد بعث بالرسالة مندوب زمري ليم ويدعى أبال - Ibâl-El من مرخوم بني سمال، وتعكس لنا الرسالة في مطلعها حياة الرعاة البدو التي يشبهها بالتاجر المتجول الذي يعبر البلاد دون أن يكثر بالأوضاع السياسية والحربية... وفي ذلك دلالة كبيرة على إصرار الناس على العمل والعيش مهما كانت الظروف! أما الموقف السياسي آنذاك فيبدو أن زوزو ملك أو شيخ بلاد أبوم قد منى بهزيمة على يد قوات زمري ليم وتم اقتسام المراعي في المنطقة بين زعيمين آخرين هما قرني ليم ملك أندريج وبونو اشتار ملك كرداء، وإن زوزو قد أقام في أزمل/تل محمد دياب (1) وهي منطقة خاضعة لنفوذ بونو اشتار، حيث نجد عمالهم القضاة يختمون بيته، ويحجزون مئة حمار عائدة لزوزو، وكان يجب أن تنتقل الحبوب من أزمل إلى سبخم وأن رجلاً هرب ليخبر قرني ليم بموت زوزو، وهذا يدل على العداء القديم بين بونو اشتار وقرني ليم. ومن المحتمل أن هذا الأخير كان يقيم في شباط انليل لأن أبال - إيل وبني سمال لا يقيمون جنوب جبل سنجار عادة، ويبدو من جهة أخرى أن قرني ليم قد أقام هيا أبو ملكاً على بلاد أبوم بعد موت زوزو موضوع الرسالة الآتية:

D.C. Annexe: A. 350 + A. 616 (26)^(٢١)

(قل لمولاي أن قال خادمك أبال - إيل Ibâl-El: «يعلم مولاي أنني أقود جماعة خانا، وإنني كتاجر يمضي بين الحرب والسلام، ورجال خانا على أقدامهم يمضون بين الحرب والسلام، ويتعلمون في مسعاهم ما تنطق به البلاد. فقد جاعني أحدهم وقال: «إن زوزو Zuzu قد جاءته منية الله، ومات» هذا ما قاله لي وحمل لي الخناثيون أيضاً خبر موته، فقلت إلى قرني - ليم Qarni-Lim «إن زوزو قد مات». إلا أن قرني ليم لم يصدق خبر موت زوزو وبعث بخادم له ليؤكد له خبر موت زوزو. وكتب ذلك الخادم العبارات الآتية: «لم تأت منية الله لزوزو بل أنه سقط من أعلى جدار السور

وحطمت واجهة أنفه إحدى الحجارة، وحملوه مضرجاً بالدماء، إلا أنه توفي أثناء نقله»
هذا ما سمعته حولي.

بعد ذلك، فإن خادم قرني ليم، وهو الرجل الذي وضع بتصرفه مئة حمار تعود
لزوجو، وكان عليه أن يحملها بالحبوب من ازمخل Azamhul حتى سبخيم Saphum،
هذا الرجل، هرب ونقل خبر موت زوجو إلى قرني ليم وقال له: «إن منية الله لم تأت
زوجو وهو لم يمّت بعد سقوطه من أعلى جدار السور. لقد مات موتاً طبيعياً».

ثم جاء قضاة من بونو - اشتار Bûnû-Eštar، وخنموا منزل زوجو، واحتجزوا
الحمير التي يجب أن تُحمل بالحبوب، في زمخل» هذا ما سمعته من حولي قد نقلته
إلى مولاي. أما الآن، فإن الرجل الذي ثار ضد مولانا، والذي قام بإنقاذ أعداء مولانا،
يهدد المراعي التابعة لمولانا ... لولاشك أن إله مولانا سيعاقبه... وبعثت برجل
عسس. وعندما ستكون لدي أخبار مؤكدة فساكتب إلى مولانا تقريراً كاملاً».

٦ - هجوم العيلاميين الإيرانيين

على لارسا والخداع الحربي!

D. Chaprin 362 [A. 1860 + A. 4419]

(قل لمولاي أن قال ياريم أدو، خادمك: «إن سوكل Sukkal (= عاهل أو حاكم)
العيلامي قد كتب إلى حمورابي ما يلي: «أتحضر للهجوم على لارسا، فهبي قواك
المميزة، قوات التفوق، وأتباعك الذين رأيتهم في اشنونا، حتى يكونوا جاهزين عند
وصولي. إذا استثنى رجل واحد من القوات التي رأيتهما، فساهاجمك أنت» هذا ما كتبه
سوكل إلى حمورابي. فأجابه هذا الأخير: «كما كتبت لي، فإن قواي جاهزة للهجوم
معك. عندما ستهاجم فإن قواي ستطلق معك». هذا ما أجابه به. وبنفس الطريقة التي
كتب فيها سوكل عيلام إلى حمورابي، فقد كتب إلى ريم - سين بهذه العبارة:
«سأجهز للانطلاق ضد بابل. جهز قواك المنتخبة، قوات التفوق، وأتباعك

المخلصين، حتى يكونوا جاهزين. فإذا استثنى رجل واحد ممن سمعت عنه، فسأهاجمك أنت». هذا ما كتبه سوكل عيلام إلى ريم - سين. إن تلك الرسالة التي بعث بها سوكل عيلام إلى ريم - سين، هي بالذات قد أرسلها ريم - سين إلى حمورابي، بذات العمل، وأرسل رسالته التي أرسلها له سوكل عيلام، إلى ريم سين، واعتباراً من ذلك اليوم، فقد أعطى حمورابي أوامره إلى وزير خارجيته سين - بل ابليم Sin-Bêl-aplim وإلى أمين السر الإداري بين النساخ - سكاكيم Sakkakim وبعث بهم إلى مملكة لارسا، وأقاموا في مشكاشبير Maškaššapir قرب سين - مباليط، وكان وزير ريم - سين يقيم لدى حمورابي. وكانت أخبار ريم سين تصل إلى حمورابي بانتظام، وأخبار حمورابي تصل بانتظام إلى ريم سين، من جهة أخرى، فإن مبعوثي سوكل عيلام يأتون إلى حمورابي بانتظام، ويبقون يوماً ثم يسفرهم في الغد.

وفي يوم وصولهم، اقتربت من باب القصر، وكان لي حوار معهم (!) سألت عن صحة سوكل عيلام وقلت لهم: «بما أن مولاي قد بعث بتقرير كامل إلى سوكل عيلام (أبيه) وأنه تكلم صراحة مع سوكل عيلام (أبيه) فإنهم يحجزونني هنا منذ وقت طويل، فقد كتب إلى مولاي ولكن حمورابي لم يدعني أغادر، ولكن إن رأيتمكم، فإنني لا أخشى أي شخص آخر».

هذا ما قلته لهم. وليعلم مولاي).

٧ - حمورابي يعلن النفير العام:

D.C. 363 [A. 4511 + 8681] p. 165

(قل لمولاي أن قال ياريم أدو، خادمك: «ما يزال جيش العدو مقيماً في أوبي Upi بعد أن نصب خيامه. وما يزال جيش الأغرار التابع لحمورابي، مقيماً في مواجهتهم، جاهزاً للمعركة، ويراقب كل منهما الآخر. وفي اليوم الذي بعثت لمولاي هذه الرسالة، فإن حمورابي قد أعلن حالة النفير العام في بلاده، فقد طلب جمهور التجار، وجميع

الذكور، وذهب حتى تحرير العبيد، مما يملكه. وأرسل مندوباً كبيراً إلى ريم سين ليطلب جيشاً.

لا أعلم، حتى الآن، عن شيء يتعلق بوصول هذه القوات، بعد رسالتي هذه، سأكتب لمولاي تقريراً كاملاً عما سأعلمه، من جهة أخرى، فقد قيدوا بالحديد المندوبين العيلاميين، وأخذوا خدمهم وأمالكهم وحميرهم للقصر.
فليعلم مولاي»).

D.C. 367 [A. 308] p. 170

(قل لمولاي أن قال خادمك ياريم - أدو: «إن بعثة، طاب علي ماتم Tâb-eli-mâtîm وسين - بعل - ابليم Sim-bêl-aplim وموظفي حمورابي الكبار الذين أوفدوا بمهمة، منذ وقت طويل، إلى مَشْكَشْبِر، لم يرجعوا بعد.

وقد كتب ريم سين إلى حمورابي بهذه العبارة: «إن قواتي متجمعة في محافظتي، فلتجمع قواتك في محافظتك أيضاً. فإن هاجمك العدو، فإن قواتي ومراكبي ستجذك. وكذلك الحال بالنسبة لي، إن هاجمني العدو. فتجذني قواتك ومراكبك»، هذا ما كتبه ريم - سين إلى حمورابي، إلا أن قواتهما، لم تتجمع بعد. ولم أتمكن من كتابة تقرير كامل بهذا الشأن).

٨ - صراع اشنونا وحمورابي واتمرم

D.C. 372 [A. 107 + A. 110]

(قل لمولاي أن قال خادمك ياريم - أدو: «كتبت لمولاي بشأن التوجيهات المتعلقة بصاحب اشنونا، التي وجهها حمورابي إلى مندوبه»، فعندما ذهب حمورابي إلى بارسيبا فقد التحق به مبعوثو صاحب اشنونا ولكنهم لم يروه. وأقاموا قبائله في اليوم التالي، وبعد أن جعلوه ينتظر ليلة كاملة، فقد أجابهم عن الأخبار التي وصلتته عنه! وأعطى أوامر إلى سين ... ابن ككرقم Kakkruqqum وإلى مردوخ - مُسَلِّم

Marduk-mušallim وبعث بهم إلى اشنونا برفقتهم، وأخذوا بأيديهم اللوح (الرسالة) الصغيرة، واستوثقوا صاحب اشنونا بهذه الرسالة. كما تعهد حمورابي هنا، وبعد أن تعهدوا واستوثقوا بموجب تلك الرسالة الصغيرة، فقد بعث حمورابي - بلوح (رسالة) كبيرة إلى صاحب اشنونا. وهي لوح (نص) معاهدة. وجعل صاحب اشنونا يقسم اليمين. وبعث صاحب اشنونا اللوح الكبير - المعاهدة إلى حمورابي وهكذا سيقسمون حلفاً بينهم. إن التحالف بين حمورابي وصاحب اشنونا قد تم أو على وشك أن يتم، هذا مؤكد. حالياً، فإن الجواب عن رسالة سفير سين ومردوخ مشلم لم يصل بعد من اشنونا؛ والحال هذه لم أتمكن من كتابة هذا الخبر إلى مولاي. ولكن إثر رسالتي هذه، سأكتب إلى مولاي الأخبار الكاملة التي ستردني من اشنونا.

إن زمري - سمس خادم أتمرم Atamrum قد انضم إلى بعثة من اكالاتوم Ekallâtum؛ وقد وصل إلى بابل. وكتب أتمرم إلى حمورابي ما يأتي: «لقد وصل شو - اشتار ومردوخ - مشلم، خادما أبي، إلي، ونقلوا أخبار أبي إلي. وكنت متيقظاً لما كتبه أبي من أخبار. وأخذت الهدايا المرسلة من أبي، من بين أيدي الوجهاء، وهي ألبسة، وزينة وحلي للألبسة، وعمرة وأريكة، وأشياء أخرى، وكنت مسروراً جداً. ولبست الثياب وزينتها، وجلست على الأريكة التي بعثها أبي لي ولا أتوقف عن الصلاة لأبي.

أما بالنسبة للمعاهدة التي أظهرها لي أبي - فلا يوجد في اللوح - النص - إله أو بند أو شرط زائد، والحقيقة أنني لا أريد شيئاً من الآلهة أو شروط إضافية. وهذا هو المكتوب على ذلك اللوح: «كن عدائياً مع أعدائي وكن صادقاً مع أصدقائي». هذا ما كتبه إلي أبي. وكلي لا أحتفظ بالرجال ... من أجل أبي ... فإنني ... واستجابة لذلك، فقد وهبوني هذه المدينة ... وجعلوني أؤدي القسم. وأقسمت بهذه العبارة: (أقسم إنني لن أحتجزكم ... وسيبقى مال مدينتكم لكم ... وعندها أقسم لوالدي على ذلك). هذا ما كتبه أتمرم إلى حمورابي. وكتب حمورابي في اليوم نفسه إلى اسمي دجن قائلاً: «دع

القوات الاشنونية التي أركبها أتمرّم، تذهب بسلام...» وكتب إلى أتمرّم هذه العبارات: «منذ قليل كتبت إلى اشمي دجن ما يلي: «عندما تشفى... فإن اشمي دجن موجود في الجبهة... وأنت اقسم لي قسماً! وأعطني الرضا الكامل، وابعث لي على جناح السرعة جواباً على رسالتي».

كان هذا ما كتبه حمورابي إلى أتمرّم).

٩ - حمورابي وعيلام وشنونا:

وبعكس ما تقدم فإننا نرى حمورابي يخالف كلامه في رسائله التي يبدو فيها بحالة حرب ضد عيلام، فهو في هذه الرسالة، يوطد علاقاته مع سوكل عيلام، ويبعث بمندوبه إلى سوز في عيلام، إلا أن مبعوثيه يتبعون طريقاً آخر ذلك أن الطريق بين بابل وسوز عبر ملجوم Malgûm ودير، قد قطع من قبل ملك شنونا. وقام حمورابي بإرسال نجدة من المال والعتاد إلى ملك ملجوم المدعو أبيق - اشتار، الذي عقد معه معاهدة. من جهة أخرى هناك قوات لدى اشمي - دجن تتحضر سراً، كما أن ملك شنونا يرفض مشروع المعاهدة مع حمورابي، وهذه الرسالة تعكس لنا الوقائع كما هي من خلال كاتبها.

D. C. 373 [A. 223]

(قل لمولاي أن قال خادمك ياريم ادو:

سبق أن كتبت إلى مولانا أن حمورابي قد وارب في كلامه وراح يثرثر بصراحة مع سوكل عيلام كما حدث قبلاً. وإن مبعوثي سوكل عيلام إلى حمورابي ما يزالون حالياً، عند باب قصره. وبعد أن زودهم سوكل عيلام بتعليماته بعث بهم بمرافقة من سوزا إلى دير استاران. واستقبلهم صاحب دير وبعث معهم بمرافقة إلى ملجوم، وقام هذا الأخير بتأمين مرافقتهم حتى بابل. إلا أن صاحب شنونا قد قطع الطريق عليهم، ولم يتمكنوا من عبوره. وعلم حمورابي أن رجال صاحب شنونا قد قطعوا الطريق

أمامهم، لم يعد يرسل مبعوثيه المعتادين إلى سوكل عيلام عبر طريق ملجوم ودير. والحال أنه توجد مناطق خالية في أراضي اشنونا فأرسلهم من تلك المناطق، وهكذا فإن بريده نفذ إلى سوكل عيلام. إلا أنه لم يتلق بعد تقريراً عما حدث لدى سوكل عيلام.

شيء آخر، أرسل حمورابي إعانة من ثقلين من الفضة وسبعين جوراً من الحبوب إلى ملك ملجوم إبيق اشتار، عندهما عقد إبيق اشتار مع حمورابي.

فليعلم ذلك مولاي. من جهة أخرى سمعت من حولي ما يلي: «إن قواتاً من ستة آلاف رجل بابلي، سيصعدون إلى اشمي دجن، إلا أنهم ييئون الشائعات أنهم سيذهبون إلى مكان آخر». لقد استطعت الكشف عن هذا الكلام. وهذا بسبب زازيا Zaziya وملك قبرا qabara حيث تم تحريك القوات. وهي قوات مجهزة. وستصعد إلى اشمي دجن، وقد استوثقت من هذه العملية، وستصعد القوات إلى اشمي دجن في بداية الشهر.

من جهة أخرى، فالرسالة (اللوحة) الصغيرة - المعاهدة التي بعث بها حمورابي إلى ملك اشنونا صلي - سين Sili-sîm، فهو ما يزال يجيب بكلام الرفض، ولم يعقد أية معاهدة مع حمورابي).

١٠ - مخالفات دبلوماسية وسياسية:

في قصر حمورابي في بابل وعيلام الإيرانية تؤدي دور الفرقة:

D.C. 384 [A. 1175]

إن منشئ هذه الرسالة غير معروف بسبب تهشم رأس اللوح/الرقم أي مطلع الرسالة ولكن الرسائل السابقة التي تتعلق بالموضوع، تدل على أن أحد مندوبي زمري ليم ملك ماري السابق الذكر هو المنشئ. يقول:

(... قد وصلوا، وكذلك التقرير الذي أؤكلني به مولاي ... إن مبعوثي اشمي - دجن في ... في دلدا Daldaba، وفي يوم وصولهم، جاؤوا إلى باب القصر، ولكنهم لم

ولا تعنفنا: فإن مولانا ينبطح تحت قدميك كالبساط. وإن كان هناك ملك آخر يبجلك. وهو لن يكتب لك مثل هكذا رسالة خضوع».

وعندما قال مبعوثو اشمي دجن ما تقدم، أجابهم حمورابي بهذه العبارات: «إنكم لا تريدون إنهاء تقريركم، فلينه مندوبي الذي جاء معكم» ودعا حمورابي مندوبه الذي كان قد جاء معهم وقال له: «بما أنهم لا يريدون إنهاء التقرير المكلفين به، فخذ دورك الآن، أكمل تقريرهم!» وجاء مندوب حمورابي الذي قدم معهم، وقرأ التقرير الذي سلمه مبعوثو اشمي - دجن. وأتمه بهذه العبارات: «إن زمري ليم الذي جعلتني أكتب إليه بصفة الابن، هذا الرجل ألم يكن خادمي؟ إنه لا يجلس على عرش رفيع، ولهذا لم أكتب تحيات مبدلة». عندها صرخ حمورابي: «أية فضيحة!».

وقد نفى مبعوثو اشمي دجن التقرير بهذه العبارات ... إننا لم نكلف بمثل هذا التقرير. وعندما انطلقنا، فإن ايلي - ايتي ilî-itê خادم اشمي دجن لحق بنا قائلاً: «هذا التقرير لم يرسل خاصة إلى مولاي زمري ليم، وإنما إلى اتمروم». فقال حمورابي لمبعوثي اشمي دجن: «إن ملوك شبرتم قد أنكروا مولاكم وقد كتبت له بهذه العبارات: «اكتب للملوك الذين يكتبون لي بصفة الابن، أنت اكتب لهم بصفة الأخ. وإلى زمري ليم الذي كتب لي بصفة الأخ، فاكتب له أنت بصفة الابن».

فهل ما كتبت له هو سيء».

هذا ما أجابهم به حمورابي، وكانت بقية التقرير الذي سلمه مندوب حمورابي يقول ما يلي: «عندما ذهبت إلى بابل، قدّم الودك، والسمك، والعصافير والفسق إلى مندوبي زمري ليم، أما أنا فلم يهتموا بي، وقدموا لي بعض الهدايا لاختيار واحدة منها قبل سفري وهي: أربع مزهريات فضة ... مثل بقية المندوبين».

هذا هو التقرير الذي قدمه مندوب حمورابي ... فقررت ببني وبين نفسي: إنني أريد هذا التقرير مهما كان، وقبل أن يدخل مندوبو اشمي دجن إلى القصر [...] كتبت إلى

مولاي، أما ما يتعلق بموضوع سوكل عيلام، سمعت من حولي ما يقال: «إن سوكل عيلام قد مات» وكتبت هذا لمولاي. أما الآن، فقد وصل مندوبون من عيلام إلى حمورابي وقالوا: «إنه ليس إلا مريضاً مخطراً».

خلاصة ونتائج:

لم نستطع أن نقدم هنا سوى مجموعة محدودة من النصوص ونأمل أن نقدم المزيد منها في المستقبل، إلا أن خيوط التوزيع الجغرافي للنفوذ السياسي في العصر العموري باتت واضحة تماماً. وهي تتمحور في وادي الفرات في ثلاثة مراكز هي:

١ - جنوباً حيث كانت بابل بقيادة حمورابي تتطلع لمد نفوذها على كامل العراق وسورية لتأمين مصادر الخشب وطرق التجارة مع الأناضول والمتوسط.

٢ - وكانت ماري في الوسط بقيادة زمري ليم التي أرادت أن تؤدي دوراً مماثلاً لبابل، بالاعتماد على حلب بقيادة ياريم ليم وقبل ذلك الاعتماد على ثرواتها في حوض الفرات الأعلى. ولهذا نجد أن معظم الرسائل تأتي من المندوبين الذين قادوا الصراع في الجزيرة العليا والجبّة الإيرانية.

٣ - آشور وعاصمتها الأولى شباط انليل (قرب القامشلي) بقيادة شمشي أدو ثم اشمي دجن في أكلاتم الذي يحاول استعادة مجد أبيه دونما نتائج مهمة.

هذا ما يتعلق بوادي الفرات.

أما في سورية - الشام الوسطى والساحلية، فقد تنازعت قوى حلب وسلالاتها اليمحاضية (سومواييوخ وياريم ليم) وقطنة (المشرفة - قرب حمص) بقيادة اشخي أدو ثم ابنه) للسيطرة على سهول سورية الوسطى وطرق المواصلات إلى الساحل السوري اللبناني. وأدت قطننا دوراً في إيصال النفوذ الآشوري إلى لبنان. وقد تمكنت حلب من معادلة التوازن السياسي، وحفظ نفوذها في كامل سورية الشام أمام نفوذ حمورابي البابلي من الجنوب، وكذلك الآشوري القادم من الشمال.